الفصل الثالث

المقاومة الوطنية في القدس

محمود أحمد محمد إبراهيم

جرَّت مكانة القدس عليها الويلات، إذ غدت المدينة المقدسة هدفًا لأطماع الغزاة على مَرّ التاريخ، فقد تناوب على غزوها، وحكمها، في العهد القديم، العبرانيون، والفارسيون، والسلوقيون، والرومانيون، والصليبيون، أما في العهد الحديث، فكان البريطانيون كلهم رحلوا، وبقيت القدس صامدة في وجه الغزاة، وسيأتي الدور ليرحل الصهاينة، وتبقى القدس مشرقة بوجهها العربي[1].

لقد كان هناك وعي مبكر بخطورة المشروع الصهيوني، ومقاومة لهذا المشروع، سياسيًّا، أو عسكريًّا، قديمة قِدَم هذا الوعي، وقِدَم المشروع الصهيوني نفسه.

تدرجت مقاومة المشروع الصهيوني قوة (في أثناء الاحتلال البريطاني ١٩١٧ ـ ١٩٤٨)، بحسب ازدياد الخطورة العملية لهذا المشروع، من هجرةٍ يهودية، واستيطان، وبناءٍ للمؤسسات.

أثبت شعب فلسطين استعداده للتضحية، المبادرة، العطاء، بل، في أحيان عدة، كانت المبادرة الشعبية تفرض نفسها على القيادة السياسية، وتدفعها للجهاد، وبعبارة أخرى، لطالما قاد شعب فلسطين قيادته نحو الثورة، والمقاومة.

إن جذوة المقاومة المسلحة لم تنقطع، على الإطلاق، منذ البداية، وحتى الآن، وإن اتخذت أشكالًا، وحركاتٍ، واتجاهاتٍ مختلفة. وكان هناك، دائمًا، من يصوب البندقية على المشروع الصهيوني، أو على الأقل، من بعد بندقيته لذلك[2].

القدس هي مركز قيادة الحركة الوطنية، ومنبع إفراز مؤسستها الكبرى، اجتماعيًا، واقتصاديًا، وفكريًا. ولقد

حدث ذلك في ظروف غير مواتية، ورغمًا عن محددات شديدة القسوة. فكانت القدس مقر المجلس الإسلامي الأعلى، ودار الإفتاء، و«اللجنة التنفيذية العربية»، ممثلة الشعب الفلسطيني (١٩١٩ـ ١٩٣٤)، و«اللجنة العربية العليا» وريثة اللجنة التنفيذية (١٩٣٦ـ ١٩٤٦) و«الهيئة العربية العليا» (حتى قيام حرب ١٩٤٨).

وحين تـأسست الأحزاب العربية الفلسطنيية، بدءًا من عام ١٩٣٤، كانت القدس المقر الرئيسي لثلاثة منها، حيث أقام رؤساء هذه الأحزاب (العربي، بزعامة جمال الحسيني، والدفاع، بزعامة راغب النشاشيبي، والإصلاح، بزعامة حسين فخري الخالدي) [٣].

● أولًا: المقاومة في أثناء الاحتلال البريطاني لفلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨

ترجع أولى علامات المقاومة الفلسطينية المسلّحة إلى سنة ١٨٨٦ (أي قبل الاحتلال البريطاني بـ٣١ عامًا)، عندما هاجم الفلاحون المطرودون من الخضيرة، وملبّس (بتاح تكفا) اليهود في القرى العربية المغتصبة، التي أُجْلُوا عنها رغمًا عنهم، بعد أن اشتراها المستوطنون اليهود من ملاكٍ كبار. وقد دفع ذلك السلطات العثمانية إلى فرض قيود مشددة على الهجرة، والاستيطان اليهودي. وتزايد بعد ذلك الوعي بمخاطر المشروع الصهيوني، فقد احتج وجهاء القدس المسلمين ضد رشاد باشا، متصرف القدس، في مايو/ آيار ١٨٩٠، عندما أبدى محاباة للصهاينة، وقدموا عريضة لرئيس وزراء الدولة العثمانية، في ٢٤ يونيو/ حزيران ١٨٩١، طالبوا فيها بوقف هجرة اليهود الروس إلى فلسطين، وتحريم استملاكهم للأراضي فيها. وكان لكتابات وأنشطة المصلح الإسلامي، الشيخ محمد رشيد رضا، والسياسي الفلسطيني يوسف الخالدي، ومفتي القدس محمد طاهر الحسيني، وممثلي مناطق فلسطين في البرلمان العثماني أمثال روحي الخالدي، وسعيد الحسيني، وصحف «الكرمل»، و«فلسطين»، و«المنادي»، وغيرها، دورٌ مجدٍ في زيادة الوعي، وتعبئة الجماهير ضد المشروع الصهيوني، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ [٤].

شهدت القدس بداية معظم أعمال المقاومة الوطنية في فلسطين، فقبيل نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت فلسطين قد خضعت للاحتلال البريطاني، وما أن استولى الجنرال اللنبي على القدس، حتى وصلت لجنة صهيونية، ضمت عددًا من الخبراء، الذين أوفدهم مكتب «المنظمة الصهيونية العالمية» في لندن، وكانت مهمتها القيام بدور استشاري للقيادة العسكرية البريطانية في كل الأمور المتعلقة باليهود، وبإقامة «الوطن القومي اليهودي»، وتمثيل المنظمة الصهيونية في فلسطين [٥].

احتل البريطانيون سنجق القدس (جنوب ووسط فلسطين)، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، وأكملوا احتلال شمال فلسطين في سبتمبر/ أيلول ١٩١٨. ولكنهم دخلوا فلسطين، كقوة حليفة للثورة العربية، التي قادها الشريف حسين بن علي؛ ولذلك لم يَلْقوا مقاومةً من أبناء فلسطين، على اعتبار وعودهم للعرب بالحرية، والاستقلال. لكن تَنكّر بريطانيا لعهودها، وإعطاءها «وعد بلفور» لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، فَتحَ الباب واسعًا لمقاومة المشروع الصهيوني، والاستعمار البريطاني. غير أن الفترة الممتدة من ١٩١٧ ـ ١٩٢٩ اتسمت بتبنّي قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية للمقاومة السياسية السلمية، لأن المشروع الصهيوني لم يكن قد أخذ أبعادًا خطيرةً بَعدُ، علاوة على عدم تبلور ونضج القوى السياسية الفلسطينية[*].

(*) كان المستوطنون اليهود ٨٪ من السكان سنة ١٩١٨، يمتلكون ٢٪، فقط، من أرض فلسطين.

ولأنه كان لا يزال هناك أمل، بأن تَعدِل بريطانيا عن موقفها[٥]، فضلًا على ضعف الفلسطينيين، وقلة خبرتهم في مواجهة بريطانيا العظمى، التي كانت أكبر قوة استعمارية في العالم، آنذاك.

كانت أولى بوادر مقاومة المشروع الصهيوني، إنشاء جمعية «الفدائية» أوائل ١٩١٩، وقد تكونت لها فروع في كل من يافا، والقدس، وغزة، ونابلس، وطولكرم، والرملة، والخليل، وتولى زعامتها، في البداية، محمد الدباغ، ثم محمود عزيز الخالدي، واستمرت بأشكالٍ مختلفةٍ حتى سنة ١٩٢٣. وكان من الشخصيات المُوَجِّهة لها، في الخفاء، الشيخ سعيد الخطيب، والحاج أمين الحسيني، والشيخ حسن أبو السعود، والشيخ محمد يوسف العلمي. ونشطت في تجنيد الأعضاء، وسط الجندرمة والشرطة الفلسطينية. ورغم أنه تم القبض على الكثير من عناصرها؛ لأنه ظهر أن أفرادها شكّلوا عناصر تحريض مهمة في انتفاضة موسم النبي موسى في القدس ٤/ ٤/ ١٩٢٠، وخلال الفترة من ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٩ـ مارس/ آذار ١٩٢٠، وقعت هجمات عربية عديدة على المستعمرات اليهودية في الجليل الأعلى، حيث دُمِّرت مستعمرات المطلة، وتل حي، وكفر جلعادي، واضطر المستوطنون الصهاينة للفرار[٦].

في ٢٧/ ٢/ ١٩٢٠، جرت مظاهرة ضخمة في القدس، اشترك فيها أكثر من ٤٠ ألف مواطن، وقام وفد، باسم المتظاهرين، بمقابلة قناصل الدول في القدس، والحاكم العسكري البريطاني، وقدموا احتجاجاتهم، ومذكراتهم ضد الهجرة اليهودية، و«وعد بلفور»، والصهيونية.

في ١/ ٣/ ١٩٢٠ هاجمت مجموعتان مسلحتان فلسطينيتان مستوطنتي المطلة، وتل حي، شمال فلسطين، وقتلت سبعة من الصهاينة، من بينهم الكابتن اليهودي، جوزيف ترامبلدور.

في ٨/ ٣/ ١٩٢٠ قامت مظاهرة في القدس وهتف المتظاهرون «لا صهيونية ولا هجرة يهودية، لا استيطان، ولا كيان، حرية واستقلال، وحدة عربية»، وتحرش بعض الشباب الصهاينة مستفزين المتظاهرين، وهتفوا للصهيونية، فوقع اشتباك بين العرب واليهود، أدى إلى جرح عشرة من الصهاينة، وقامت القوات البريطانية بتفريق المظاهرة، واعتقال عدد من العرب.

في ١٢/ ٣/ ١٩٢٠ ذهب وفد برئاسة رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، موسى كاظم الحسيني، لمقابلة ونستون تشرتشل، وزير المستعمرات البريطاني، الذي كان قادمًا للقاهرة من لندن، لبحث القضية الفلسطينية. قابلهم تشرتشل بفتورٍ ملحوظ، وقال: «لا أريد أن أبحث معكم هنا في السياسة، سأقابلكم في القدس في ٢٨/ ٣/ ١٩٢٠» و قد استقبل تشرتشل الوفد الفلسطيني، في ذلك اليوم، حيث قدم موسى كاظم الحسيني مذكرة، طالب فيها بإلغاء «وعد بلفور»، ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والاستيطان فيها، وإقامة حكومة فلسطينية وطنية، مسؤولة أمام مجلس نواب منتخب من الشعب الفلسطيني، واتهمت المذكرة بريطانيا بالتحيز للصهاينة. وأجاب تشرتشل بأن بريطانيا ملزمة بتنفيذ «وعد بلفور»، وقد وافقت عليه دول العالم الحليف، وهي ملزمة، أيضًا، بتنفيذ البند الثاني من الوعد نفسه، الذي نص على عدم المساس بحقوق أهالي البلاد المدنية، والدينية[٧].

(*) أقرت عصبة الأمم، رسميًا الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٢٢.

انتفاضة موسم النبي موسى

تعد هذه الانتفاضة أولى الانتفاضات الشعبية في فلسطين، تحت الاحتلال البريطاني، وقد حدثت الشرارة الأولى لهذه الانتفاضة بينما كانت وفود القرى محتشدة، في القدس، يوم ٤/ ٤/ ١٩٢٠، للمشاركة في هذا الموسم الديني السنوي. وقد خطب في هذه الحشود عدد من رجالات فلسطين، مثل موسى كاظم الحسيني، والحاج أمين الحسيني، وعارف العارف، فألهبوا حماس الجماهير. وفي هذه الأثناء، ظهر أن أحد اليهود قد أهان العَلَم الإسلامي لأهل الخليل، وقام بتلويثه، فهاجمه المتظاهرون وأوسعوه ضربًا. ثم تفجَّر الموقف، واتسعت الاشتباكات، لتشمل مدينة القدس بكاملها، ففرضت السلطات البريطانية الأحكام العرفية، وحاولت السيطرة على الوضع، لكن ذيول الأحداث استمرت حتى ١٠/ ٤/ ١٩٢٠، وأسفرت هذه الانتفاضة عن مقتل خمسة صهاينة، وجرح ٢١١ آخرين، بينهم ١٨ إصابة خطيرة. أما العرب، فقد استشهد منهم أربعة، وجرح ٢٤ آخرون، كما جرح سبعة جنود بريطانيين[٨].

تبعها عصيان مدني، في يافا، في ١/ ٥/ ١٩٢٠، سرعان ما امتدت نيرانه لتشمل مدن وقرى أخرى[٩].

لقد جاءت هاتان الحركتان الثوريتان قبل وغداة زيارة وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل إلى فلسطين في ٢٨/ ٣/ ١٩٢١، والذي أكد، بشكلٍ قاطع، دعم بريطانيا للوطن القومي اليهودي، وكان لقاؤه بالوفد العربي الفلسطيني، في القاهرة، في ٢٢/ ٣، وفي القدس في ٢٨/ ٣ مخيبًا للآمال. كما قمعت الشرطة، بعنف، مظاهرة قامت في حيفا في ٢٨/ ٣، وقتلت اثنين من العرب، ومنعت المظاهرات، مما أثار جوًّا من التوتر[١٠].

وكان يمكن لهذه الانتفاضة «موسم النبي موسى» أن تتفاعل، وتتسع، لولا أن موقف الزعامات السياسية الفلسطينية مال إلى تهدئة الوضع. وقام عدد من الوجهاء، ورؤساء البلديات بتهدئة الجماهير. وقدَّرت السلطات البريطانية «خدمات» رؤساء بلديات القدس، وطولكرم، ويافا، وقاضي القدس، ومفتيا عكا، وصفد، فمنحتهم وسام عضو الإمبراطورية M.B.E، وحتى موسى كاظم ـ رئيس «اللجنة التنفيذية العربية»، التي تُمثل قيادة الحركة الوطنية ـ قام بنفسه بجولة لتهدئة الوضع؛ لأن القيادة كانت لا تزال تأمل بحل سياسي، ولم تكن في وضع يؤهلها لأي عمل ثوري، ومن جهتها، قامت السلطات بعمل استرضائي، إذ أوقفت الهجرة اليهودية إلى فلسطين مؤقتًا، اعتبارًا من ١٤/ ٥/ ١٩٢١. وألقى المندوب السامي، هربرت صمويل، بيانًا، في ٣/ ٦/ ١٩٢١، ذكر فيه أن بريطانيا لن تفرض على شعب فلسطين سياسة تجعلهم يعتقدون بأنها مناقضة لمصالحهم الدينية، والسياسية، والاقتصادية. وقد نشر هذا جوًّا من الارتياح في الوسط العربي، غير أنه لم يكن، عمليًّا، سوى وسيلة لتهدئة الأمور، وترتيب الأوضاع، ليمضي المشروع الصهيوني، بوسائل أكثر احترافًا ونجاحًا. وقد اعترف السكرتير العام للحكومة، ديدز، أن الغالبية العربية شعرت، بعد ذلك بأشهر، بأن الحكومة البريطانية «مقيدة اليد والقدم»، وأن هذا البيان مجرد ذرٍّ للرماد في العيون، وأن الشقة قد اتسعت بين العرب والإدارة البريطانية، التي أصبحوا يرونها والصهيونية شيئًا واحدًا[١١].

وفي ٢٠/ ٣/ ١٩٢٤، كان الصهاينة يحتفلون بعيد المساخر، وأشركوا في مساخرهم زي العلماء المسلمين، مما أثار حفيظة المسلمين، فقُتل يهودي، وآخر مسلم، وجرح يهودي، واثنان من المسلمين[١٢].

وفي ٢٥/ ٣/ ١٩٢٥ أضربت فلسطين، إضرابًا شاملًا، بمناسبة زيارة بلفور إلى فلسطين[١٣]. ثم انفجرت

مرة أخرى، في القدس، في ٢٣/ ٨/ ١٩٢٨، حيث هتف المستوطنون اليهود، أثناء احتفالهم بعيد الغفران، قرب حائط البراق، بامتلاك الحائط، وكادت تحدث المواجهة بين المستوطنين والفلسطينيين، لولا تدخل قوت الاحتلال البريطاني، آنذاك[١٤].

حدث تصعيد يهودي آخر، في ١٥/ ٨/ ١٩٢٩، حيث نظَّم اليهود مظاهرات في القدس، اتجهت إلى «حائط البراق»، وهناك رفعوا العلم الصهيوني، وأنشدوا نشيدهم الوطني، وشتم خطباؤهم رسول الله ﷺ، والإسلام، والمسلمين. وقام المسلمون، في اليوم التالي، بمظاهرة مضادة، من المسجد الأقصى. وحدث شجار بين العرب واليهود، في ١٧/ ٨، زاد الأوضاع توترًا. ثم وقعت صدامات واسعة، بعد صلاة الجمعة يوم ٢٢/ ٨، في القدس[١٥]. حتى اشتعلت الحركة الوطنية، واستمرت المواجهات، التي لم تستطع القوات البريطانية منعها، هذه المرة، وعرفت باسم «هبَّة البراق»[١٦].

مرحلة الثلاثينيات

ظلت القدس، طوال فترة الاحتلال البريطاني، مركز قيادة الحركة الوطنية، و(اللجنة التنفيذية العربية)، التي كانت تنبثق عن المؤتمرات الوطنية العربية، وتأخذ على عاتقها قيادة الحركة الوطنية، إلى مطلع الثلاثينيات، وحين تأسست الأحزاب السياسية الفلسطينية الستة، على مدى النصف الأول من الثلاثينيات، كان المقر الرئيسي لثلاثة منها يقع في القدس، وهي أحزاب: العربي (جمال الحسيني)، والدفاع (راغب النشاشيبي)، والإصلاح (حسين فخري الخالدي)[١٧].

أخذت الهجرة اليهودية تتزايد، بشكل خطير، منذ مطلع الثلاثينيات، ونشطت الحركة السياسية الفلسطينية، وتزايد الوعي بأن بريطانيا هي «أصل الداء وسبب البلاء»، حيث تأكد للفلسطينيين، أن مشكلتهم هي، أساسًا، مع بريطانيا، وركّزت على ذلك حملات «حزب الاستقلال»، و«جمعيات الشبان المسلمين»، على نحوٍ خاص. وطالبت «اللجنة التنفيذية العربية» ـ التي تمثل العرب الفلسطينيين، سياسيًّا ـ بوقف الهجرة، وهدّدت بتبنيٍ سياسة اللاتعاون مع السلطات. وعندما رفضت السلطات البريطانية الطلب، قررت اللجنة تصعيد الموقف، بتسيير المظاهرات، دون إذن السلطات. وقررت الإضراب العام في فلسطين، يوم ١٣/ ١٠/ ١٩٣٣، وإقامة مظاهرة كبرى في القدس، بحيث تتوالى بعد ذلك المظاهرات في مدن وقرى فلسطين، وتضرب البلاد، في كل مرة تحدث فيها المظاهرات. وألزمت اللجنة التنفيذية، أعضاءها، بتقدم المسيرات، وأصدرت بيانًا، أكدت فيه أن «عرب فلسطين قد يئسوا، يأسًا تامًّا، من الحكومة، فهم لا يخاطبونها في شيء، ولا يطلبون منها شيئًا»[١٨].

أضربت فلسطين، وخرجت مظاهرة كبيرة من المسجد الأقصى، بقيادة اللجنة التنفيذية، وقامت الشرطة بتفريق المتظاهرين، بالقوة، مما أدى إلى وقوع ١١ جريحًا، بينهم خمسة من الشرطة[١٩].

حركة القسَّام

لن نتحدث عن جماعة القسام «الجهادية»، ودورها، غير أننا نكتفي هنا بالتركيز على إعلان الشيخ عز الدين القسام الثورة في فلسطين. فبعد نحو عشر سنوات من التنظيم، والإعداد السري، قرر الشيخ القسام إعلان الثورة،

في١٥/ ١١/ ١٩٣٥. وقد توافق ذلك مع الازدياد الهائل في الهجرة اليهودية، والاستيطان، وتهريب اليهود للسلاح بكمياتٍ ضخمة، فضلًا على ازدياد الرقابة على القسَّامَ، ورفاقه. وتلخصت خطة القسام في الخروج إلى القرى، وحضّ الناس على شراء السلاح، والاستعداد للثورة. وقد خرج القسَّام، مجاهدًا في الجبال، في شمال فلسطين، مع نفرٍ من أصحابه، بعد أن باع بيته، وباع أصحابه حلي زوجاتهم، وبعض أثاث بيوتهم، ليشتروا بها البنادق والرصاص.

وقد فقد القسَّامَ وإخوانه عنصر المباغتة، عندما كُشف أمرهم ومكانهم، قبل أوانه، حيث كانوا يخططون للهجوم على إحدى المستعمرات الصهيونية (بيت ألفا). وبعد فجر يوم ١٩/ ١١/ ١٩٣٥، طَوّقت قوات كبيرة من الشرطة، تقدر بـ٤٠٠ رجل ـ مُعظمُهم من الإنجليز ـ القسّامَ، وعشرةً من رفاقه، في أحراش بلدة يعبُد، دارت معركة استمرت أربع ساعات ونصف. وحسب المصادر العربية فإن البريطانيين خسروا خمسة عشر رجلًا، لكن التقارير البريطانية تشير إلى مقتل شرطي واحد، وجرح آخر. وقد استشهد في هذه المعركة الشيخ القسام نفسه، واثنان من رفاقه، فيما قُبض على ستة آخرين[٢٠].

ولا تنبع أهمية الحادثة من الاشتباك نفسه، أو من عدد القتلى، والجرحى، وإنما من أن استشهاد القسام قدم نموذجًا عمليًّا في التضحية، والفداء، كأحد كبار العلماء في فلسطين. وكان استشهاده علامة فارقة، في تاريخ فلسطين الحديث، وأحدث تَغيّرًا أساسيًّا، في مسار الحركة الوطنية الفلسطينية. إذ إنه كرَّس البديل الجهادى، المستند لقوة الجماهير المنظمة، بعد سنوات من العمل السياسي السلبي المقتصر على العرائض، والتظلمات، والخطب، فحسب، فيما بدا أنه أسلوب غير مجد، لو ظل منفردًا، دون تنظيم المقاومة المسلحة، وتنظيم الجماهير في حركة عصيان واسعة، ضد القوى الاستعمارية، والصهيونية. فألهبت حركته، وتضحيته الحماس، «وصارت مثلًا رائعًا للجرأة، والجهاد العلني، ضد الإنجليز»[٢١].

قامت البلاد، واهتزت، أيما اهتزاز، فأطلق شعب فلسطين على القسام لقب «أبو الوطنية»[٢٢].

وكان القسام محقًّا، قبل استشهاده، عندما قال، قبل ابتداء المعركة، إنه ورفاقه كعود ثقاب، سيشعل الثورة في البلاد. فلم يكن استشهاد القسام نهاية حركته، بل بداية الثورة[٢٣].

الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ـ ١٩٣٩)

تعد هذه الثورة من أعظم الثورات في تاريخ فلسطين، في القرن العشرين، وقد عبّرت عن روح التضحية والفداء والمثابرة والإصرار على الحقوق، التي تميَّز بها أبناء فلسطين. وتمكنت هذه الثورة، في بعض مراحلها، من السيطرة على كل الريف الفلسطيني، بل على عدد من المدن، بينما انكفأت السلطات البريطانية في بعض المدن المهمة. وقدّمت هذه الثورة نموذجًا عالميًّا، هو أطول إضراب سياسي يقوم به شعب كامل، عبر التاريخ، حيث استمر ١٧٨ يومًا. وربما لو كان الأمر مقتصرًا على الصراع بين شعب فلسطين وبين الاستعمار البريطاني لنالت فلسطين حريتها واستقلالها، منذ تلك الثورة، إذا ما قارنا هذه الثورة بثورات الشعوب التي نالت استقلالها. ولكن وجود العامل الصهيوني، وتأثيره القوي داخل فلسطين، وفي بريطانيا، والدول الكبرى، جعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيدًا، وفرض أن تتسع دائرة مشروع التحرير إلى الدائرة العربية والإسلامية.

وانقسمت الثورة إلى مرحلتين، كانت بينهما مرحلة توقف، أشبه «بالهدنة المسلحة»، المشوبة بالتوتر.

المرحلة الأولى من الثورة

لم يلق القساميون السلاح، بعد استشهاد قائدها، فقاموا باختيار قائد جديد، هو الشيخ فرحان السعدي، وعلى الرغم من كونه في الخامسة والسبعين من عمره، فإنه كان لا يزال مقاتلًا صلبًا، نشطًا، مشهورًا بدقته في إصابة الهدف. وقد عملت هذه الجماعة على تهيئة الظروف لانطلاقة أقوى وأوسع [٢٤].

ففي ١٥/ ٤/ ١٩٣٦، هاجمت مجموعة قسامية مسلحة قافلة سيارات يهودية، في منطقة المثلث الفلسطيني (نابلس/ جنين/ طولكرم)، وقتلت بعض ركابها[٢٥].

وفي أعقاب إعلان الإضراب العام الشامل، الذي بدأته يافا، فالقدس، في ٢٠/ ٤/ ١٩٣٦، قامت الثورة في فلسطين، واستمرت زهاء ثلاث سنوات متصلة، وبمجرد انفجار الثورة، سارعت الأحزاب السياسية العربية الستة، في القدس، من ٢٥/ ٤/ ١٩٣٦، للحاق بالمبادرة الشعبية، حيث شكلت هذه الأحزاب جبهة فيما بينها، حملت اسم «اللجنة العربية العليا»، وقررت استمرار الإضراب السياسي، الذي امتد زهاء ستة أشهر متصلة، كانت القدس خلالها تمتلك زمام المبادرة، وانتهى الإضراب ببيان أصدره الملوك والأمراء العرب، دعوا فيه الشعب الفلسطيني إلى وقف الإضراب «اعتمادًا على حسن نوايا صديقتنا بريطانيا» [٢٦]!

مرحلة التوقف المؤقت للثورة: أكتوبر ١٩٣٦ ـ سبتمبر ١٩٣٧

دخلت فلسطين، بعد توقف الإضراب، في شبه هدنة مؤقتة، بانتظار نتائج توصيات اللجنة الملكية «لجنة بيل»، التي أرسلت للتحقيق في مطالب أهل فلسطين. وقد حافظ الثوار على درجة من الجاهزية، يسهل معها انتقال البلاد إلى الوضع الثوري السابق، في حالة عدم تحقيق المطالب العربية. ولذلك، فقد استمرت عمليات المجاهدين ذات الطابع الفردي، كالنسف، والقنص، والاغتيالات السياسية. وقد اعترفت الحكومة البريطانية بمقتل ٩٧ شخصًا، بينهم ٩ جنود بريطانيين، وجرح ١٤٩ بينهم ١٣ من رجال الشرطة، والجيش، خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٣٧ [٢٧].

المرحلة الثانية من الثورة (سبتمبر/ أيلول ١٩٣٧ ـ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩)

في صيف ١٩٣٧، عاد الفلسطينيون إلى حمل السلاح، إثر صدور تقرير «لجنة بيل» الإنجليزية (٧/ ٧/ ١٩٣٧)، التي اقترحت تقسيم فلسطين، وامتدت الثورة حتى الربع الأول من عام ١٩٣٩، وتمركزت قيادتها في القدس، حيث مقر «اللجنة العربية العليا»، والقيادة الفعلية للثورة، ولم تتوقف الثورة بإلقاء السلطات البريطانية القبض على أعضاء «اللجنة العربية العليا»، خريف ١٩٣٧ [٢٨].

مرحلة الأربعينيات

شهدت الفترة من (١٩٤٠ـ ١٩٤٥) تدهورًا حادًّا، وصل إلى حد السكتة القلبية، ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية (صيف ١٩٤٥)، عادت الحركة الوطنية إلى الحياة، مرة أخرى، حيث سمحت قوات الانتداب البريطاني بعودة

الزعماء المنفيين، أمثال رئيس الحزب العربي، جمال الحسيني، كما تم الإفراج عن جميع المعتقلين، وتم تشكيل «الهيئة العربية العليا»، وفي القدس تشكلت قيادة «الجهاد المقدس»، للدفاع عن التراب الوطني، والتصدي لقرار التقسيم، الصادر عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧[٢٩].

● ثانيًا: ما بين النكبة والانتفاضة الأولى (١٩٤٨-١٩٨٧)

تمثل حرب ١٩٤٨ أحد أكبر مآسي التاريخ الفلسطيني، والعربي، والإسلامي الحديث، والمعاصر، على حدٍّ سواء، إذ إنها الحرب التي أدت إلى سقوط ٧٧٪ من أرض فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني، وأدت نتائجها إلى تثبيت كيانه «الإسرائيلي» حديث التأسيس عليها، وتشريد نحو ثلثي شعب فلسطين[٣٠].

مع قيام الدولة الصهيونية، عام ١٩٤٨، على أرض فلسطين، واغتصابها لأجزاء كبيرة من مدينة القدس، إلى جانب أراضي فلسطينية أخرى، وإعلان الدولة الصهيونية القدس عاصمة لها، دخلت القدس مرحلة جديدة من الصراع الديني، والسياسي، على حدٍّ سواء، بين العرب، من جهة، والكيان الصهيوني، وحلفائه الغربيين، من جهةٍ أخرى.

ومضيًّا من إسرائيل في فرض العدوان بالأمر الواقع، فقد سعت، في صيف عام ١٩٥٤، إلى أن يقدم السفراء الأجانب أوراق اعتمادهم في القدس (الإسرائيلية)، وقدم السفير البريطاني الجديد أوراق اعتماده، إلى بن تسفي، رئيس دولة إسرائيل، حينذاك، في مدينة القدس، يوم ١٠/ ١١/ ١٩٥٤، وبعده بيومين قدم سفير الولايات المتحدة الجديد، مستر لوسون أوراق اعتماده، في مدينة القدس، وبعد ذلك تقدمت إسرائيل بخطوة عدوانية جديدة، لم تحفل باستنكار مجلس الامن الدولي، وهي إقامة العرض العسكري بمدينة القدس، في منتصف مايو/ آيار من كل عام، لمناسبة الاحتفال بما أسمته إسرائيل «عيد الاستقلال»[٣١].

وتعد الفترة ما بين ١٩٥٧ـ ١٩٦٤، فترة مخاض في تاريخ المقاومة الفلسطينية، إذ أخذت تظهر العديد من المنظمات الفدائية الفلسطينية، لعل أبرزها «فتح»، التي أنشأها، ابتداءً، وانحاز إليها، رجال الإخوان المسلمين، الراغبين في تفجير الثورة، ضمن مشروع وطني فلسطيني، و«الجبهة القومية لتحرير فلسطين»، المعروفة باسم «شباب الثأر»، وهي تنظيم إقليم فلسطين التابع لحركة القوميين العرب، والتي بدأت عملياتها في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٤، «وجبهة التحرير الفلسطينية»، بزعامة أحمد جبريل، التي بدأت عملياتها، حوالي ١٩٦٥. ومنذ انطلاقة العمليات المسلحة لحركة «فتح»، وحتى حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧، قام جناحها العسكري (العاصفة)، بشنِّ ٢٠٠ عملية مسلحة[٣٢].

شكلت حرب يونيو/ حزيران١٩٦٧، نقطة تحول كبرى في الصراع العربي ـ الصهيوني، بعدما استولت «إسرائيل» على القدس القديمة، واحتلت الحرم القدسي الشريف، وأخذ الصراع يتمحور في مظهرين أساسيين، **الأول**: تزايد بناء المستوطنات اليهودية، في الجزء الشرقي من القدس، مع مزيد من مصادرة الأراضي العربية فيها، **والثاني**: تزايد أعداد المهاجرين اليهود، إليها، وتراجع نسبة الوجود العربي هناك[٣٣].

في ٧ يونيو/ حزيران كان الكيان الإسرائيلي قد أكمل احتلاله للضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية. ودخل

جنوده حرم المسجد الأقصى، وهم يهزجون «محمد مات ... خلف بنات» ! أي يقصدون رسول الله ﷺ، ويصرخون «يالثارات خيبر»، معلنين انتقامهم لهزيمة اليهود على يد رسول الله ﷺ، في خيبر، سنة ٦٢٩م ـ ٧هـ، قبل نحو ١٣٤٠ سنة [٣٤].

تجلى صمود المقاومة الوطنية الفلسطينية، في وجه تهويد المؤسسات الفلسطينية، في عدة أحداث، ففي عام ١٩٦٧، عرض على أمين القدس الشرقية، روحي الخطيب، أن ينضم إلى بلدية القدس الموحدة (الإسرائيلية)، وهو ما رفضه الخطيب وأعضاء الأمانة، إلا أن الأمر انتهى بصدور أمر إسرائيلي، قضى بحل أمانة القدس الشرقية، في ١٩٦٧/٦/٢٩. وفي أعقاب هذا القرار، تم دمج معظم الموظفين في البلدية (الإسرائيلية)، كما جرت محاولة من وزارة الأديان (الإسرائيلية)، للسيطرة على الشؤون الدينية، والإسلامية في القدس الشرقية، والضفة الغربية. وعلى إثر ذلك، تم تشكيل «الهيئة الإسلامية»، وفي الاتجاه نفسه، رفضت الغرفة التجارية، في القدس الشرقية، عروضًا ثلاثة، تقدمت بها ثلاث روابط محلية إسرائيلية، لضم الغرفة إلى الهيكل التنظيمي لتلك الروابط، إضافة إلى «شركة كهرباء القدس»، التي قاومت السيطرة (الإسرائيلية)، حتى عام ١٩٨٦، كما تصدت المدارس الفلسطينية، في القدس، لفرض منهج دراسي عربي ـ إسرائيلي، واستمرت المعركة، لسنوات طويلة، اضطرت الحكومة الإسرائيلية، خلالها، للوصول إلى تسوية، حيث فرضت السلطات الإسرائيلية المنهج العربي ـ الإسرائيلي على المدارس الحكومية، ولم تفرضه على مدارس وكالة الغوث، أو المؤسسات التعليمية الخاصة، ثم سمحت بإدخال المنهج الأردني، إلى جانب المنهج العربي ـ الإسرائيلي. أما الجمعيات المهنية المختلفة، كالمحامين، والأطباء، والمهندسين، فقد رفضت تسجيل مؤسساتها لدى السلطات (الإسرائيلية)، إلى أن تسمح لهذه الجمعيات بالعمل، بموجب التسجيل الأردني القائم. وترافقت المقاومة السابقة، مع إنشاء مؤسسات وطنية جديدة، تم تشكيل «لجنة التوجيه الوطني»، برئاسة الشيخ عبد الحميد السائح، وقد أدت هذه اللجنة، إلى جانب «الاتحاد النسائي العربي»، دورًا مقاومًا مهمًا داخل المدينة.

اتسمت الفترة السابقة على الانتفاضة، وبالتحديد منذ ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٧، باتباع إستراتيجيتين أساسيتين، إحداهما المقاومة السلبية، التي كانت امتدادًا للفترة السابقة، وشكلًا من أشكال التكيُّف تحت الاحتلال للبقاء، كما كانت شكلًا من أشكال تأكيد الهوية الوطنية. وبينما جري تأكيد الصمود بالمقاومة السلبية، باعتبارها الإستراتيجية الرئيسية للنخبة، ومنظمة التحرير، ومؤيديها، في المناطق المحتلة، مع تلقي الدعم من الدول العربية، لمواصلة هذا الصمود، فإن المناضلين والشباب، في الحركة الطلابية الفلسطينية، كانوا يطوّرون إستراتيجية المقاومة النشطة، في مواجهة التنظيم السلبي للصمود، وقد بدأ الشباب بإقامة بنية تحتية بادية، في ميادين الصحة، والتعليم، والزراعة، ضمن إطار المقاومة الجماهيرية، وقد أقيم الكثير من هذه المجموعات المجتمعية، واللجان في القدس الشرقية.

وخلال الفترة ما بين ١٩٧٥ـ ١٩٨٧، تركزت المنظمات الاجتماعية، والثقافية، في القدس، مما أدى إلى اعتبارها مركزًا للنشاطات الفلسطينية، وقد كان لهذه المؤسسات تأثيرها على المدينة، كما ساعد اختيار الصحف، والمسارح، وغيرها، القدس الشرقية مركزًا لنشاطاتها، في الحفاظ على الهوية الفلسطينية هناك[٣٥].

الانتفاضة الأولى

كانت أبرز مظاهر المقاومة المسلحة للمشروع الصهيوني، في تلك المرحلة، الانتفاضة الأولى، التي اشتهرت باسم

«انتفاضة الحجارة»، و«انتفاضة الأقصى والاستقلال»، وهزيمة الكيان الإسرائيلي، في جنوب لبنان، واضطراره للانسحاب من هناك. وتميزت تلك المرحلة بأن القوى الفلسطينية الأساسية، التي تبنت المقاومة المسلحة، طوال العشرين سنة السابقة، ممثلة في قيادة م.ت.ف، و«فتح»، قد جنحت إلى خط التسوية السلمية. بينما ظهرت فصائل فلسطينية جديدة، تبنت العمل العسكري وفق منظور إسلامي «جهادي»، وبرعت في تنفيذ العمليات العسكرية في الداخل. فتولت «حماس» قيادة الفعاليات «الجهادية»، وإلى جانبها ـ وإن بدرجةٍ أقل في عدد العمليات ـ «حركة الجهاد الإسلامي»!

قد حدثت شرارة الانتفاضة الأولى، في يوم ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٧، إثر استشهاد أربعة عمال فلسطينيين، في حادث دهس متعمد، في اليوم الذي سبقه. وقد قررت حركة الإخوان المسلمين المشاركة في الانتفاضة، وتوجيهها، فبدأت بترتيبها المظاهرات العارمة، بعد صلاة الفجر (٩ ديسمبر/ كانون الأول) من مسجد مخيم جباليا، وسقط الشهيد حاتم السيسي، ثم سقط الشهيد رائد شحادة، في مظاهرة أخرى، قرب مستشفى الشفاء(*).

وتوالى سقوط الشهداء، واتسعت المظاهرات، لتعم أرجاء الضفة، والقطاع، وليشارك فيها كافة أبناء الشعب[٣٦].

وتميزت المرحلة الأولى، من الانتفاضة، بالمواجهات الشعبية الواسعة، والإضرابات، والمظاهرات، ومقاطعة الإدارة المدنية الصهيونية، وتنظيف المجتمع من العملاء، ومروجي الفساد، والمخدرات. وبعد نحو أربع سنوات، أخذت تبرز المرحلة الثانية، التي شهدت تنامي العمليات المسلحة، ضد القوات الصهيونية، مع تراجع الأنشطة الجماهيرية الواسعة. وقد عدّت أغلبية قيادة «فتح»، «اتفاق أوسلو» (سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣)، نهاية للانتفاضة، فأوقفت فاعلياتها، أما المنظمات الأخرى، وخصوصًا «حماس»، و«الجهاد الإسلامي»، فقد استمرتا في فاعلياتهما، بل صعّدتا من عملياتهما الجهادية. غير أن تشكيل السلطة الفلسطينية، في الأرض المحتلة في ٤/ ٧/ ١٩٩٤، أفقد الانتفاضة الكثير من وهجها، كما أفقدها المشاركة الشعبية الجماهيرية اليومية، فاقتصر الأمر، بشكل أكبر، على أعضاء الحركات والتنظيمات.

ومن جهة أخرى، عدّت القيادة المتنفذة في الانتفاضة، رافعة لها من محاولات العزل، والتهميش، والتجاوز، فسعت لتوظيف الانتفاضة، في تحقيق إستراتيجية تلك القيادة، للوصول إلى تسوية سلمية، مع الكيان الصهيوني، تؤدي إلى انسحابه، وإقامة الدولة الفلسطينية على أراضيها. فبعد أسبوعين من بدء الانتفاضة الأولى، دعت م.ت.ف إلى إضراب عام يوم ٢١/ ١٢/ ١٩٨٧، وبدأت صور ياسر عرفات، وشعارات المنظمة في الظهور. وشكلت م.ت.ف «القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة»، التي شاركت فيها «فتح»، و«الجبهة الشعبية»، و«الديمقراطية»، و«الحزب الشيوعي»، وصدر بيانها الأول في ٨/ ١/ ١٩٨٨[٣٧].

وهكذا بدأ يتنازع قيادة الانتفاضة تياران، هما التيار الإسلامي، وتيار م.ت.ف، بإستراتيجيات مختلفة، وأهداف متباينة، ولكن بفعاليات جهادية نضالية، متشابهة، تقريبًا، ضد العدو، تمثلت في المظاهرات، والإضرابات، وقذف

(*) (وأصدر الإخوان المسلمون، بيانهم الأول، باسم حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، في ١٣/ ١٢/ ١٩٨٧، التي عدّوها امتدادًا لهم، وجناحهم الضارب).

الصهاينة بالحجارة، وقنابل المولوتوف الحارقة، وغيرها. وكانت الجماهير تستجيب لكلا التيارين، وتلتزم بالإضرابات، التي يدعوان إليها.

وقد قام الاحتلال الصهيوني بإجراءات لا مثيل لها لقمع الانتفاضة، فاستخدم الرصاص الحي، ورصاص الدمدم، المحرم دوليًا، وأساليب تكسير عظام المتظاهرين، ومختلف أشكال تعذيب الأسرى، ومنع السفر، وقطع المواصلات، والاتصالات الهاتفية، ومصادرة الهويات، وهدم المنازل. وشملت إجراءات الاحتلال الحصار التمويني، وإغلاق الأسواق، وإتلاف المحاصيل الزراعية، ومحاولات كسر الإضرابات التجارية. وتعرضت المؤسسات التعليمية والصحية الفلسطينية لعمليات الإغلاق، والمداهمة، فضلًا على انتهاك حرمة المساجد[٣٨].

وتعد الانتفاضة المباركة، من أروع وأنبل ما شهده تاريخ فلسطين، بل التاريخ الإنساني، عندما واجه شعب أعزل، بأطفاله، ونسائه، وشيوخه، إحدى أعتى، وأقسى، القوى في العالم، والمدججة بأحدث أسلحة البطش، والدمار. وانشَدَّ العالم إلى ذاك الشعب، مُعجبًا، ومبهورًا، بـ «العين التي تحدَّت المخرز»، وبالحجر الذي واجه الرصاصة، والدبابة. وكان من أبرز إنجازات الانتفاضة:

ـ أثبتت للكيان الإسرائيلي فشل كافة أساليبه في تركيع وإذلال الشعب الفلسطيني. وأثبتت للعالم أن هناك شعبًا مظلومًا، أرضه محتلة، ويريد أن يعيش حرًا مستقلًا.

ـ فضحت الوجه القبيح للكيان الإسرائيلي، وأظهرته قوة اغتصاب، وإجرام، وقهر للآخرين.

ـ وجهت الانتفاضة ضربة قوية لمظاهر الاحتلال، ومؤسساته، وخصوصًا الجواسيس، والعملاء، المتعاونين مع جهاز المخابرات الإسرائيلي، وتمت تصفية نحو ٩٠٠ منهم.

ـ عالجت الانتفاضة، بكثير من النجاح، مظاهر الفساد الـخُلقي، والاجتماعي، وتضاعفت مظاهر التدين، وظهر جيل جديد من الشباب، والفتيان، يمتاز بالشجاعة، والثقة بالنفس، والاستعداد للتضحية، والاستشهاد.

ـ عادت القضية الفلسطينية لتتصدر قائمة الاهتمامات الدولية.

ـ أظهرت الانتفاضة قوى جديدة، أصبحت ذات تأثير فاعل في الساحة الفلسطينية، ممثلة في «حماس»، و«الجهاد الإسلامي».

كما من نتائج الانتفاضة أن عاد الوهج والألق لـ م.ت.ف، وقيادتها، مرة أخرى، وفرضت نفسها على الساحة من جديد.

انتهت الانتفاضة المباركة الأولى، بتوقيع قيادة م.ت.ف، اتفاق أوسلو (١٣/ ٩/ ١٩٩٣)، وبدء مرحلة الحكم الذاتي، في أجزاء من الضفة، والقطاع (٤/ ٧/ ١٩٤٤). غير أن «حماس»، و«الجهاد الإسلامي»، استمرتا في فعالياتهما الجهادية، وعملياتهما العسكرية النوعية، وخصوصًا الاستشهادية. فقد ردَّت حماس على مذبحة الحرم الإبراهيمي (٢/ ١٩٩٤) بخمس عمليات عنيفة. وردت على استشهاد يحيى عياش[*] عبر عدة عمليات في الفترة الواقعة بين ٢٥/ ٢ ـ ٤ / ٣/ ١٩٩٦، هزت الكيان الصهيوني وأفقدته صوابه، واستدعت عقد مؤتمر دولي بمشاركة الدول الكبرى، بهدف ما أسموه «محاربة الإرهاب»![٣٩].

(*) كان مهندسًا لعمليات عسكرية مقاومة، أدت لمقتل ٧٠ صهيونيًا، وجرح ٣٤٠ آخرين.

● ثالثًا: الدفاع عن الأقصى (١٩٩٠-٢٠٠٣)

يقوم المسلمون في فلسطين بالسهر على حماية المسجد الأقصى، ورعايته، إذ إن ضمن أهداف الاحتلال الصهيوني، تدمير المسجد الأقصى، وبناء الهيكل مكانه. وهناك ٢٥ منظمة يهودية ـ صهيونية، متطرفة، تسعى لتحقيق هذا الغرض. وعادة ما يجتمع المسلمون، بالآلاف، للدفاع عن حرمة الأقصى (وهم لا يملكون إلاّ حجارتهم، ولحوم أجسادهم)، كلما حاول الصهاينة انتهاك حرمته.

في ٨ / ١٠/ ١٩٩٠ حاولت جماعة «أبناء الهيكل»، اليهودية ـ الصهيونية، وضع حجر الأساس لبناء «الهيكل اليهودي» في ساحة المسجد الأقصى، فهبَّ المسلمون، يدافعون عن حرمته، مما أدى لاستشهاد ٣٤، وجرح ١١٥ آخرين، بعد أن تمكنوا من إفشال المخطط الصهيوني. وفي ٢٤ / ٩/ ١٩٩٦، قامت سلطات الاحتلال الصهيوني، بافتتاح نفق أسفل المسجد الأقصى، مما أدى إلى انتفاضة غضبٍ عارمة، شملت مدن وقرى فلسطين، ووقعت اشتباكات واسعة، مع الشرطة، والجيش الإسرائيليين، اللذين استخدما الأسلحة المختلفة، وطائرات الهيلوكبتر، لقمع الانتفاضة. وتدخلت الشرطة الفلسطينية، للدفاع عن الفلسطينيين، ضد الهجمات الإسرائيلية، واستمرت الأحداث ثلاثة أيام متصلة (٢٥ ـ ٢٧/ ٩/ ١٩٩٦)، مما أدى لاستشهاد ٦٢ فلسطينيًّا، وجرح ١٦٠٠ آخرين، وقتل ١٤ جنديًّا إسرائيليًّا، وجرح ٥٠ آخرين.

لقد كانت زيارة الإرهابي آرييل شارون، زعيم حزب «الليكود»، الاستفزازية، إلى حرم المسجد الأقصى، في ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠، الشرارة التي فجرت الانتفاضة الثانية، وكان واضحًا أن ثمة مباركة، وتأييدًا، من رئيس الحكومة الصهيونية، آنذاك، إيهود باراك للزيارة، حيث زوده بستمائة جندي لمرافقته، واستنفر ٣٠٠٠ جندي، وشرطي في القدس وأحيائها. وصمم المسلمون على الدفاع عن الأقصى، حيث سقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مائة. وكانت عناصر اشتعال الوضع، وأسباب تفجره جاهزة، فقد وصلت مفاوضات التسوية السلمية، إلى طريق مسدود، وتأكدت الأطماع الصهيونية اليهودية في القدس، والمسجد الأقصى، وظهر التعنت الإسرائيلي، في قضايا اللاجئين، والمستوطنات، واستمر الصهاينة في مصادرة الأراضي، وتوسيع المستوطنات. ولم يكونوا مستعدين للتنازل، أو لتنفيذ القرارات الدولية، عندما يتعلق الأمر بالقضايا الجوهرية الحاسمة.

وبدا لباراك أن «الحل الوحيد الذي لاح في الأفق، كان دفع الوضع إلى الانفجار»، كما قال بنفسه في اجتماع سري، في ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٠، ولعله أراد إظهار مزيد من التصلب، وتوسيع دائرة شعبيته، واستثمار ذلك في وقف عملية التسوية، أو إدخالها في أزمات متتالية، في الوقت الذي تزداد فيه عمليات الهجرة اليهودية، ومصادرة الأراضي، والاستيطان، ليتسنى تحقيق مزيد من الضغط على السلطة الفلسطينية، التي أثبتت السنوات الماضية قابليتها للتنازل، والتراجع، وتخفيض سقف مطالبها.

أفرزت الانتفاضة عددًا من الحقائق والمؤشرات أهمها:

● **الأولى**: أن الأمة العربية، والشعوب الإسلامية، لا تزال حية، رغم الجراح التي أثخنتها، وأن روح المقاومة، والصمود، والاستعداد للبذل، والتضحية، لم تخمد. فقد خرجت المظاهرات بعشرات الآلاف، بل بمئات الآلاف، في

أقطار الوطن العربي، وبلدان العالم الإسلامي، من الرباط، في أقصى المغرب العربي، وحتى جاكرتا، في أقصى المشرق الإسلامي، كلها تهتف للأقصى، والقدس، وفلسطين، وتطالب بالجهاد، وتقدم ما لديها من تبرعات مالية، ودعم سياسي، وعسكري. فكانت لحظات رائعة من أخوة العروبة، والإسلام. وظهرت تجليات الإمكانات الكبرى، لهذه الأمة، لتحقيق النصر، عبر المقاومة.

● **الثانية**: وجهت الانتفاضة ضربة قاسية لمشروع التسوية السلمية، والتطبيع مع العدو، وبرز خيار المقاومة كخيار أمثل.

● **الثالثة**: أن هذه الانتفاضة انعكست على طريقة تفكير الناس، وأسلوب حياتهم اليومي، فاشتد العداء للمشروع الصهيوني، والإمبريالية، وتكرست روح المقاومة، وروح التكافل، وتجاوبت الجماهير مع دعوات مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، حتى غيّر الملايين من أسلوب طعامهم وشرابهم اليومي، ومن لباسهم، ووسائل تنقلهم، واتصالاتهم، وترفيههم، فكانت مدرسة تربوية اجتماعية شعبية، ربما احتاجت حركات الإصلاح سنوات، للوصول إلى مثل نتائجها.

● **الرابعة**: أن التسوية السلمية قائمة على الظلم والغصب، وأن الجماهير الفلسطينية، والعربية، والإسلامية، ترفض التنازل عن حقوقها في الأرض المقدسة، وأنها لا تأمل من الغاصب الصهيوني سلامًا، أو خيرًا، وأنها ترى في الجهاد الوسيلة لاسترداد الحقوق.

● **الخامسة**: برزت أهمية الإعلام، ودوره في التعبئة، إذ تمكنت الجماهير المنتفضة من كسر الطوق الإعلامي الغربي الخاضع للهيمنة الصهيونية، من خلال الفضائيات العربية، وخدمات الإنترنت، والبريد الإليكتروني، وخصوصًا في المراحل الأولى من الانتفاضة.

ومن جهة أخرى، تميزت هذه الانتفاضة بالمشاركة الشعبية الواسعة، في كل أرجاء فلسطين المحتلة، وبمشاركة كافة التيارات الفلسطينية. كما تميزت في الوقت نفسه، بشدة القمع الصهيوني، الذي تمادى في قتل المدنيين العزل، وخاصة الشيوخ، والأطفال، واستخدام الأسلحة المحرمة دوليًا، وانكشفت سوءات أدعياء السلام «الصهاينة»، الذين تباروا في سحق الانتفاضة المباركة بكل وحشية، ونزعة عنصرية.

لقد ثبت أبناء فلسطين، ثباتًا بطوليًا، طوال سنين الانتفاضة، ولا يزالون. وعلى الرغم من اختلاف المصادر في التحديد الدقيق لخسائر الانتفاضة، وأعداد الضحايا، فإننا نختار هنا أرقام «مركز المعلومات الوطني الفلسطيني»، التابع للسلطة الفلسطينية، وهي تميل إلى التوسط والاعتدال. وتشير إحصاءات هذا المركز، إلى أن عدد شهداء الانتفاضة منذ اندلاعها في ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠، وحتى ٣١/ ١/ ٢٠٠٣، كان ٢٢٧١ شهيدًا، بينهم ٤٠١ تحت سن الثامنة عشرة. أما عدد الجرحى فبلغ خلال الفترة نفسها ٣٣٦٣٧ جريحًا.

كما تبنى العدو الصهيوني سياسة الاغتيال السياسي لنشطاء الانتفاضة، حيث استشهد من جراء ذلك حتى نهاية ١٢/ ٢٠٠٢، نحو ١٩١ فلسطينيًا، من مختلف الفصائل الفلسطينية[٤٠].

إن كافة الأساليب القمعية، لم تفلح في قمع الانتفاضة، التي أخذت طابعًا عسكريًّا مقاومًا، زاد قوة، مع تطور الأحداث. واعتمد الكيان الصهيوني، أسلوب التعتيم الإعلامي، وإخفاء خسائره الحقيقية، وعدم الإعلان، إلا عمَّا لا يمكن إخفاؤه، وإعطاء أرقام أقل للحفاظ على معنويات التجمع الصهيوني، وجنوده، وعلى الثقة بالقيادة الصهيونية، وإشعار المجاهدين والمقاومين، أن فعالياتهم، وعملياتهم، غير مؤثرة، فضلًا على إضعاف روح التفاعل الجماهيري العربي، والإسلامي، والشعبي الدولي، مع القضية.

وقد شاركت الفصائل الفلسطينية، كافة، في العمليات العسكرية. وتميزت «حماس»، بدورها البارز، وبعملياتها الاستشهادية، التي أحدثت دويًّا هائلًا، وزعزعت الأمن في الكيان الإسرائيلي، حيث نفذ معظمها في أراضي فلسطين التي احتلت سنة ١٩٤٨. وحتى نهاية ١/ ٢٠٠٣، تم تنفيذ نحو ٩٠ عملية استشهادية، نفذت «حماس»، أغلبها، وأقواها أثرًا. كما نفذت كل من «كتائب شهداء الأقصى» التابعة لحركة «فتح»، و«سرايا القدس» التابعة لحركة «الجهاد الإسلامي»، مجموعة من هذه العمليات. وقد بلغ عدد قتلى الكيان الإسرائيلي، نتيجةً للعمليات الاستشهادية ٢٩٧ قتيلًا، من أصل ٧٢٤ قتلوا في الفترة من ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠، وحتى ٣١/ ١/ ٢٠٠٣.

● رابعًا: يوميات القدس (٢٠٠٤-٢٠٠٨)

في عام ٢٠٠٤ نفذت عملية استشهادية بالقدس الغربية، أعلنت كتائب «شهداء الأقصى» مسؤوليتها عنها، ومن نتائجها إصابة العشرات، فيما لقيَ ثمانية إسرائيليين مصرعهم.

كذلك قامت قوات الاحتلال باقتحام المسجد الأقصى، وأطلقت القنابل الصوتية، وقنابل الغاز على المصلين[٤١].

ثم قامت المظاهرات في الأراضي الفلسطينية، وفي العواصم العربية، احتجاجًا على اغتيال الشيخ المجاهد الشهيد أحمد ياسين، القيادي لحركة «حماس»، وذلك في ذكرى يوم الأرض الثامن والعشرين[٤٢].

وجهت مؤسسة «الأقصى»، لإعمار المقدسات الإسلامية، نداءً للعالمين العربي والإسلامي، للتحرك بهدف إنقاذ الأقصى، حيث أكدت بوجود مخطط، صهيوني، لنسف المسجد.

قوات الاحتلال تمنع المصلين الفلسطينيين، ممن لم يتجاوز أعمارهم ٤٥ عامًا، وغير الحاصلين عن الهوية (الإسرائيلية)، من الدخول إلى منطقة الحرم، وأداء صلاة الجمعة. في صباح يوم السبت، اغتيل الدكتور الشهيد عبد العزيز الرنتيسي، الذي خلف المجاهد أحمد ياسين في قيادة حماس[٤٣].

الآلاف من فلسطينيي ١٩٤٨ يتوافدون على الحرم، القدسي، للمشاركة في مهرجان الحركة الإسلامية، ردًّا على التهديدات الصهيونية للحرم. ثم قامت المظاهرات، والإضرابات، تضامنًا مع الآلاف من الأسرى، في سجون الاحتلال[٤٤].

شهدت القدس في عام ٢٠٠٥، عدة أحداث، حيث جرت مواجهات بين شرطة الاحتلال، وآلاف الفلسطينيين، الذين احتشدوا في المناطق المحيطة بالحرم القدسي الشريف، واستخدمت شرطة الاحتلال، الغاز المسيل للدموع،

لتفريق تلك الحشود[٤٥]. كما تم هدم ٨ منازل فلسطينية، ومحطة بنزين، بشرق القدس ضمن خطة مجلس المدينة الإسرائيلي لهدم ٩٠ منزلاً، لإقامة متحف للحفريات[٤٦].

مفتي القدس والديار الفلسطينية، الشيخ «عكرمة صبري»، حذر من خطورة الممارسات الإسرائيلية على المسجد الأقصى المبارك، داعيًا إلى شد الرحال إلى المسجد الأقصى، رغم الحواجز العسكرية.

قام مواطن فلسطيني بطعن جندي إسرائيلي بسكين (لقي مصرعه في الحال)، عند حاجز للجيش الإسرائيلي، شمال القدس[٤٧].

قامت قوات الاحتلال الصهيوني في ٤/ ١/ ٢٠٠٦، بمنع مرشحي دائرة القدس، من إطلاق حملتهم الدعائية في المدينة، خلال الانتخابات التشريعية، واعتقلت عددًا منهم، واعتدت على آخرين بالضرب المبرح[٤٨].

أغلقت الأوقاف الإسلامية في القدس المحتلة، أبواب المسجد الأقصى، في وجه غير المسلمين، وذلك لإحباط محاولات اقتحامه، وتدنيسه[٤٩].

في ٢١/ ١/ ٢٠٠٧ قاضي قضاة فلسطين يدعو العالم العربي، والإسلامي، إلى قمة إسلامية طارئة، لمواجهة التهديدات الإسرائيلية في القدس. ثم احتج آلاف الفلسطينيين في الأقصى، على أعمال الحفر الإسرائيلية قرب الأقصى[٥٠].

كذلك توعدت بعض الفصائل الفلسطينية، إسرائيل، برد مزلزل على اعتداءاتها على الأقصى، وندد نوابٌ عرب، في الكنيست، بالحفريات قرب الأقصى، ومواجهات، وتظاهرات حاشدة، عند مدخل القدس، وفي الناصرة، وآلاف الفلسطينيين يلبون نداء نصرة الأقصى، والشرطة الإسرائيلية اقتحمت ساحة المسجد، وتواصل الحفريات عند الأقصى[٥١].

الآلاف من الفلسطينيين، يشاركون في مهرجان دعم الأقصى، ويصلون في المسجد، في الجمعة الأولى من رمضان[٥٢].

إعلان حالة التأهب القصوى، وإغلاق تام، لكافة الأراضي الفلسطينية، من قبل قوات الاحتلال، بمناسبة عيد الغفران عند اليهود، وتمنع كذلك الصلاة في الأقصى، ثم تستأنف أعمال الحفر بالحرم القدسي[٥٣].

في مطلع عام ٢٠٠٨، مقتل ٨ إسرائيليين، وإصابة ٣٥ آخرين، في هجوم على مدرسة دينية بالقدس، و«حماس» تعلن مسؤوليتها عن العملية، وصدمة، وقلق في إسرائيل جراء هذه العملية، وخروج الآلاف من الفلسطينيين من قطاع غزة في مسيرة احتفالية بهذه العملية، ثم أطلقت وزارة الأوقاف في حكومة غزة، حملة شعبية عالمية لنصرة المدينة المقدسة، بالتزامن مع ذكرى حريق الأقصى، و«إسماعيل هنية» يجدد رفض حكومته المُقالة، أي اتفاق يتنازل عن القدس، وحق اللاجئين في العودة إلى ديارهم[٥٤].

قام مستوطن صهيوني في ١٦/ ١٠/ ٢٠٠١، باقتحام المسجد الأقصى، للمرة الثانية، وقام آخر بفتح معبد على بعد أمتار من المسجد الأقصى.

مظاهرات حاشدة، واحتجاجات على هدم مقبرة إسلامية، من قِبَل قوات الاحتلال، وبناء معبد عليها، ورئيس البلدية الإسرائيلي، بالقدس، يتعهد ببناء مزيد من المنازل للإسرائيليين، في شرق المدينة المقدسة[٥٥].

هكذا وُوجه الصهاينة، ببركان غضب عارم، ليس في فلسطين وحدها، وإنما في الوطن العربي، والعالم الإسلامي، وحيثما وجدت الجاليات الإسلامية، وأبطل الله، سبحانه وتعالى، حسابات الصهاينة، ومكرهم، وبرز الأقصى عصيًّا على الخضوع، والاغتصاب، عندما استعدّت الملايين أن تفديه ـ والأرض المباركة ـ بأرواحها.

إن قضية فلسطين ـ بأرضها المباركة، وبقدسها، وأقصاها ـ قضية تجمع المسلمين، وتوحدهم، بل تكون سببًا، في تجاوز خلافاتهم، والتركيز على العدو الصهيوني المشترك. لقد غدت فلسطين، القضية المركزية للوطن العربي، وللعالم الإسلامي، فلا قضية تجمعهم، كهذه القضية، ولا عدو يجتمعون ضده، كهذا العدو.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) عصام الغريب، القدس وثقافة المقاومة (الدفاع عن القدس عبر التاريخ)، صامد **الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٥٥ـ١٥٦، يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٩، ص ٤١.

(٢) محسن محمد صالح، **المقاومة المسلحة ضد المشروع الصهيوني في فلسطين ١٩٢٠ـ٢٠٠١**، سلسلة دراسات منهجية في القضية الفلسطينية ج٣، المركز الفلسطيني للإعلام، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٣) محمد خالد الأزعر، **القدس بين الانتفاضة والتفاوض**، ط ١، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠١، ص٤٩

(٤) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط٩، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥، ص ٤١ـ٦٧.

(٥) هاني الهندي، **المقاطعة العربية لإسرائيل**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥، ص ٥٥ــ ٥٦

(٦) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٧) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، **أعمال شغب فلسطين ١٩٢٠**، انظر الرابط:

http: / /ar.wikipedia.org /wiki/ أعمال ـ شغب ـ فلسطين ـ ١٩٢٠

(٨) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٩) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥، ص ٩٧.

(١٠) الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٢ .

(١١) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(١٢) عمر أبو النصر، إبراهيم نجم، وأمين عقل، **جهاد فلسطين العربية: فصول تبحث في تاريخ القضية الفلسطينية وما طرأ عليها من تطور وتحول منذ النضال العربي الأول وحتى الثورة الحاضرة**، يافا، د.ن، ١٩٣٦، ص ٢٦٠.

ـ إحسان النمر، **قضية فلسطين في دورها البلدي**، نابلس، جمعية عمال المطابع التعاونية، د.ن.، ص ١١٢

(١٣) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine_info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(١٤) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.

(١٥) عبد الوهاب الكيالي، **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ـ١٩٣٩**، ط٢، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨، ص ١٤١ـ١٤١.

ـ الكيالي، تاريخ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٢.

ـ إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عامًا**، ج ٢، بيروت، دار النهار، ١٩٧٤، ص ١١٥.

(١٦) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩.

(١٧) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩ .

(١٨) الكيالي، وثائق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٨ـ٢٣٩.

ـ محمد عزة دروزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين**، د.ن، ص ٣٠.

(١٩) الكيالي وثائق...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧٨.

(٢٠) محسن صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين**، د.ن، ص ٢٣١ـ ٣١٧.

(٢١) محمد عزة دروزة، **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الإسرائيلي الحديث على فلسطين وما جاورها**، بيروت، دار الكلمة، ١٩٨٠، ج٢، ص ٥٢.

(٢٢) محمد نمر الخطيب، **من أثر النكبة**، دمشق: المطبعة العمومية، ١٩٥١، ص ٨٨.

(٢٣) عبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام**، بيروت، دار الأمة للنشر، ١٩٨٤، ص ١٠٦.

(٢٤) «**يوميات أكرم زعيتر**»، ط٣، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠، ص ٥٣ـ٥٦.

(٢٥) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية (المحطات الرئيسية/ الدروس المستفادة)**، القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠٠، ط١، ص ١٨.

(٢٦) ياسين، كفاح...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠ـ١٧٢ .

(٢٧) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine_info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٢٨) منى أسعد، موقع القدس في الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ـ١٩٨٤، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ٨٥، ١٩٩١، ص ٤٧ .

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٤٩.

(٣٠) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine_info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٣١) الغريب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥١ـ٥٢ .

(٣٢) رياض نجيب الريس، ودينا حبيب نحاس، **المسار الصعب :المقاومة الفلسطينية، منظماتها، أشخاصها، علاقاتها**)، بيروت، دار النهار، ١٩٩٦، ص ٣٧، ٤٩، ٢٤١.

(٣٣) الغريب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢.

(٣٤) محمد بن عبد الغني النواوي، **رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي**، ج١: مؤامرة الدويلات الطائفية، د.ن، د.ت، ١٩٨٣، ص ٣٩٧ .

(٣٥) هالة منصور، المقاومة الوطنية في القدس ١٩١٨ ـ ١٩٩٧، **صامدالاقتصادي**، (عمان)، العدد ١١، ١٩٩٧، ص ١٤٣ـ ١٤٤.

(٣٦) غسان حمدان، **الانتفاضة المباركة (وقائع وأبعاد)**، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٩، ص ٣٦ـ٣٨.

(٣٧) أسعد عبد الرحمن، ونواف الزرو، **الانتفاضة، مقدمات ونتائج، تفاعلات وآفاق**، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٩، ص ١٩٤ـ١٩٥.

(٣٨) جواد الحمد، الانتفاضة الكبرى وتطور القضية الفلسطينية، في: **المدخل إلى القضية الفلسطينية**، ص٤٠٧ـ٤١٣.

(٣٩) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط

: http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٤٠) **المصدر نفسه**.

(٤١) **القدس**، (القاهرة)، عدد ٦٤، أبريل/ نيسان ٢٠٠٤، ص١١٠.

(٤٢) **المصدر نفسه**، عدد ٦٥، مايو/ آيار ٢٠٠٤، ص١١٢ .

(٤٣) **المصدر نفسه**، عدد ٦٦، يونيو ٢٠٠٤، ص١١٢ .

(٤٤) **المصدر نفسه**، عدد ٦٩، سبتمبر ٢٠٠٤، ص١١٣ .

(٤٥) **المصدر نفسه**، عدد ٧٨، يونيو ٢٠٠٥، ص١١١.

(٤٦) **المصدر نفسه**، عدد ٨٠، أغسطس ٢٠٠٥، ص١١٢.

(٤٧) **المصدر نفسه**، عدد ٨٥، يناير ٢٠٠٦، ص١١٢ .

(٤٨) **المصدر نفسه**، عدد ٨٦، فبراير ٢٠٠٦، ص١١٢.

(٤٩) **المصدر نفسه**، عدد ٩١، يوليو ٢٠٠٦، ص١١٢ .

(٥٠) **المصدر نفسه**، عدد ٩٩، مارس ٢٠٠٧، ص١١٣.

(٥١) **المصدر نفسه**، عدد ١٠٥، سبتمبر ٢٠٠٧، ص١١١.

(٥٢) **المصدر نفسه**، عدد ١٠٦، أكتوبر ٢٠٠٧، ص١١٣.

(٥٣) **المصدر نفسه**، عدد ١٠٧، نوفمبر ٢٠٠٧، ص ١١١ـ١١٣.

(٥٤) **المصدر نفسه**، عدد ١١٢، أبريل ٢٠٠٨، ص ١١٣.

(٥٥) **المصدر نفسه**، عدد ١٢٠، ديسمبر ٢٠٠٨، ص ١١٣.

* * *

obeikan.com